# مظفر النواب: ظاهرة الانفصال والاتصال
# قراءة في قصيدة:
# " المسلخ الدولي:
# باب أبواب الأبجدية"

د. عادل الأسطة/جامعة النجاح الوطنية

يعرف الكثيرون مظفر النواب شاعر هجاء بالدرجة الأولى، يعرفونه شاعراً يدرج شعره تحت الشعر السياسي، شاعراً ينصب من نفسه قاضياً يحاكم الأنظمة العربية التي اختلف، لكونه كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي العراقي الذي أعلن طلاقه منه، معها. وقليلون، ربما هم الذين يعرفون النواب شاعر خمر ووجد، شاعراً قرأ أبا نواس والخيام وتأثر بخمريات الأول ورباعيات الثاني، فكتب قصائد لا تقلد الاثنين، وإن ذكرت القارئ بقصائدهما. وكانت قصائده، مثل قصائده السياسية، نسيج وحده، وإذا كان عيب على محمود درويش، قبل أن يكتب " سرير الغريبة " ١٩٩٩ و" جدارية" ٢٠٠٠" أنه ظل أسير الموضوع الفلسطيني"، فقد عيب على النواب، قبل إصدار أعماله الكاملة، أنه ظل أسير قصيدة الهجاء"، حتى إذا ما قرأ المرء" رباعيات" و" وباللون الرمادي"، وقصائد قليلة أخرى، رأى أنه ليس أسير ظاهرة واحدة أو موضوع واحد.

لن أخوض في هذه المقالة في ظاهرة تعدد الموضوعات وتنوعها، ولن أدافع عن الاتهام الذي وُجه إلى النواب من أنه شاعر سياسي بالدرجة الأولى، ولن أقف أمام شاعريته لأقول إنه شاعر ظلمته السياسة حيث أهملت أشعاره ولم تلق اهتماماً في أثناء دراسة حركة الشعر العربي الحديث، لأن الدارسين لا يقتربون من شاعر، يسبب لمن يقترب منه المشاكل مع الأنظمة التي هجاها النواب، وما أكثرها.

ســـوف أقف في هذه المقالة أمام قصيدة" المســـلخ الدولي باب أبواب الأبجدية، وتحديداً أمام جانب واحد منها هو جانب انفصاله عن أهله واتصاله بهم، وهو جانب مهم جداً في أشـــعار الشاعر، وقد برز في غير قصيدة، وإن برز في هذه القصيدة بوضوح بيّن وهو هنا يختلف عنه في قصيدة" ثلاث أمنيات على أبواب السنة الجديدة"، لأنه في هذه يعلن عن انفصاله عن الحزب الشيوعي، ذلك لأن وجه الحزب لم يبق وجه الناس، وحين يصبح وجه الحزب وجهاً آخر، فلا بدّ كما يقول النواب، من الطلاق،وهكذا طلق الحزب لأن القامات ارتفعت لحناً أممياً دون أن يأتي العراق، مع ذلك فقد ظل النواب يوافي، عن بعد، رفاقه وإن لم يعد أحد منهم يذكره ووفاء النواب لرفاقه الذين اختلف معهم يوازيه وفاء آخر لأهله ونخلة أهله في" المسلخ الدولي"، وهذا يعبر عن أن الشاعر الذي انفصل عن الحزب، وانفصل أيضاً عن أهله، لم يستطع أن ينفصل عنهم انفصالاً نهائياً. لقد عاد، ولو لفظاً، ليتصل بهم، وليعبر لهم عن أنهم ما زالوا أهله.

ربما تحيلنا ظاهرة الانفصال والاتصال هذه إلى مثيلاتها في الشعر العربي منذ الجاهلية، وربّما تذكرنا بالشنفري وطرفة بن العبد والمقنع الكندي وأبي فراس الحمداني، وقد تذكر قراءُ آخرين اطلعوا على قصائد عبّر فيها أصحابها عن تجارب مشابهة لتجربة النواب، قد تذكر القراء الآخرين بالقصائد التي قرأوها وبأصحابها.

أعلن الشنفري في لاميته المشهورة التي مطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم        فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

أعلن منذ بدء قصيدته عن نيته في هجر قومه إلى قوم آخرين، وقد فضل على قومه حيوانات الصحراء ومنها الذئاب والضباع والنمور، ولأنه كان يدرك استحالة العيش مع هؤلاء، واستحالة قبول قبائل أخرى له، فقد ظل في نصه يعبر عن حنينه إلى قومه، وإن بالتلميح لا بالتصريح، بالصورة لا بالقول المباشر وهذا ما رآه دارسو شعره في قوله:

إذا زل عنها السهم حنت كأنها          مزرأة ثكلى ترن وتعــــولُ

عاكساً الحقيقة، مسقطاً ما في نفسه على قبيلته، لأنه هو، لا هي، من يحتاج إليها في بيئة الصحراء التي لا ترحم، البيئة التي لا يستطيع الفرد فيها أن يعيش بمفرده، إذ لا بد من جماعة يدافع عنها وتدافع عنه، جماعة يحتاج إليها المرء أكثر مما تحتاج هي إليه، إلا في حالات نادرة كحالة عنترة، وحتى هذا كان يُلفظ أحياناً من القبيلة، ولم تكن تتذكره إلا في وقت الحروب، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها وجدنا أباه يتنصل من وعوده له، تنصل عمه أيضاً من وعوده له بتزويجه عبلة، وهكذا كان عنترة يترك وحيداً، كما أفرد طرفة إفراد البعير الأجرب.

ولئن كان الشنفري، يوم أهانته أخته من يني سلامان، قد أقسم أن يقتل من القبيلة مائة، وبرّ بقسمه، إذ ظل يغير عليهم ويقتل منهم، فإن المقنع الكندي لم يكن على شاكلته لقد آثر هذا مقابلة الإساءة التي تصدر من بني قومه بالإحسان، فإن أكلوا لحمه وفر لحمهم، وإن هدموا مجده بني لهم مجداً، والمقنع الكندي هو الذي قال:

يطالبني في الدين قومي وإنمــا          ديونـــي في أشياء تكسبهم حمــداً

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم          وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

ومظفر النواب في قصيدته" المسلخ الدولي" يذكرنا بهؤلاء الشعراء وتبدو قصيدته وقد جاءت من رحم هذه القصائد، وإن اختلف النواب في جوانب اختلافاً جزئياً.

تقع قصيدة" المسلخ الدولي" في عشر صفحات، تتكون الأولى من اثني عشر سطراً شعرياً، والأخيرة من ثلاثة أسطر، فيما بقية الصفحات تتكون من خمسة عشر سطراً لكل صفحة والقصيدة في أكثرها، على تفعيلة مفاعلتن، وعلى قافية اللام، لا تشذ عن ذلك إلا في الصفحة قبل الأخيرة.

يفتتح مظفر قصيدته بقوله:

" تعلل فالهوى عللُ

وصادف أنه ثملُ

وكاد لطيب منبعه يشفُ

فمانَعَ الخجلُ

ويذكرنا هذا الإيقاع، وتذكرنا هذه القافية بقصائد قديمة من الشعر العربي، يذكرنا هذا بلامية ذي الرمّة التي منها:

لمية موحشـــــــــــاً طللُ          يلوح كأنــــه خلـــــــلُ

وتقترب القصيدة، في بناء جملتها من قصيدة القطامي في بناء جملته، قصيدة القطامي التي مطلعها:

إنا محيوك فاسلم أيها الطللُ          وإن بليتَ، وإن طالت بكَ الطولُ

ولربما تذكرنا بعض أسطر النواب بأبيات أخرى، هي:

فهنّ كالحلل الموشيّ ظاهرهـــا          أو الكتاب الذي قد مسّـــهُ بللُ

كانت منازلَ منا كنا نُحلّ بهـــا          حتى تغير دهرٌ خائن خَيـــلُ

والناسُ، من يلق خيرا قائلون له          ما يشتهي، ولأمِ المخطئ الهَبَلُ

ويحيلنا نصّ النواب أيضاً إلى شعراء قدامى آخرين فقوله مثلاً:

ونقل قلبه لكنهم كانوا هـــــم الأوّل

فلم يعدل بنخلة أهله الدنيا، فنخلة أهله الأزلُ

يذكرنا هذا بقول أبي تمام في الحب الأول والمكان الأول يقول. أبو تمام:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى   ما الحـــب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتـــى   وحنينـــه أبداً لأول منـــزل

ويحيلنا قوله:

فقلت يا أمي قضيتنا الدمــــــــار   أو التراب الربّ لا وسط ولا نِحلُ

إلى قول أبي فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توســـط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبـــر

ولربما كانت بعض الصور الشعرية في قصيدة مظفر النواب صوراً مكرورة لا جديد فيها، ولا غرو في ذلك، ما دام الشاعر قرأ التراث العربي واستوعبه، وما دام يعبر عن انتمائه لأمته ولنخلة أهله، فهو ما دام كذلك فلماذا تختلف لغته وصوره وتشبيهاته إن قوله:

ذئاب كلما شمّت جريحاً بينها

أطالت من مخالبها وصارت فيه تقتتلُ

بمذئبة كذلك كيف دعوى يسلم الحملُ

وكيف يُقالُ إن الحكم للأغماد ينتقلُ

إن قوله هذا قادم من صلب التراث الشعري العربي، ولكنه لم يقصر ذلك على الجزيرة العربية أو أي مكان في العالم العربي، لقد رأى العالم كله، وفي قواه العظمى، ذئاباً استفردت بالجريح، أو بالشعب الضعيف. وكلمات ذئب، مخالب، مذئبة، حَمَل، أغماد ( كلمات قادمة من زمن مضى، من الشعر العربي القديم، وإن ما زالت تستخدم. كأنّ مظفراً الذي اختار لقصيدته عنوان " المسلخ الدولي " ما زال يرى في العالم غابة يأكل القوي فيها الضعيف وباب أبواب الأبجدية هو أن تكون قوياً، وأن يكون الحكم للسيف لا للغمد، وانتقال الحكم للأغماد موضع تساؤل فيه قدر من الاستهجان والاستغراب.

يفتتح الشاعر قصيدته بأسطر شعرية يجرد فيها من ذاته ذاتاً يتحدث عنها وليس هذا الأسلوب بجديد في الشعر العربي. إنه الأسلوب الذي يغلب على السرد القصصي، لا على الشعر الغنائي الذي غالباً ما يصاغ بضمير الأنا. ونحن نعرف أساليب أخرى ظهرت في الشعر العربي القديم منها أسلوب الضمير الثاني، وهو ما يبدو في قول زهير:

دعْ ذا وعد القول في هـــــرم   خير البداة وسيّد الحضر

وفي قول عمر بن أبي ربيعة

أمن آل نعم أنت غاد فمبكــــــر   غداة غد أم رائحٌ فمهجــــــــــــــرُ

لحاجة نفس لم تقل في جوابهــــا   فتبلغ عذرا والمقالة نعــــــــــــــذر

أهيم إلى نعم فلا الشــــمل جامعٌ   ولا الحبل موصولُ ولا أنت تقصـــر

وفي قول أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الــــداء

لكن مظفراً لا يكتب قصيدته بالضمير الثالث وحسب، إنه ينوع كما نوّع عمر بن أبي ربيعة، وإذا كان هذا انتقل من الضمير الثاني/الأنت، إلى الضمير الأول/الأنا، فإننا في" المسلخ الدولي" أمام ضمائر عديدة، يمكن الإشارة إليها على النحو التالي:

ص(83) ضمير الهو، وهذا ما لاحظناه في الأسطر المقتبسة سابقاً وفي نهاية الصفحة نجده يتحدث عن الدنيا:

فما خلل بها الدنيا، ولكن كلها خللُ

ويتابع القول عما في هذه الدنيا، لكي ينتقل بعد ذلك، في منتصف ص ٨٤، إلى الضمير الثاني – أي المخاطب، ويكون المخاطبون هنا بني قومه.

فإن لم تقدحوا ناراً، فكيف يراكم الأملُ

وسرعان ما يتخلى عن الضمائر السابقة – أي الثالث/الهو والثاني المخاطب/الأنتم، ليتحدث بضمير النحن:

قضيتنا وإن عجنوا وإن صعدوا وإن نزلوا

لها شرح بسيط واحد، حق لم الهبّلُ

ويتخلى عن ضمير النحن، ليستخدم ضمير الأنا/الوجه الآخر لضمير الهو، ولكن بعد أن يفضل الإعلان عن ذاته:

أقولُ ويمنع الخجلُ

بشجِّ العين يكتحلُ

وتنفصل ذاته عن النحن في اللحظة نفسها، ولا يعود يتكلم عن الأنا ضمن النحن، وإنما يجعل من النحن اثنين: أنا الشاعر وأنتم المخاطبين، وهكذا يقول مباشرة بعد السطرين السابقين:

وكيف عروسكم حصصٌ وحصتكم بها نقلُ

أعوّلتم على جبل بمكة

تسلمون ويسلم الجبلُ؟

ويعود الشاعر إلى الضمائر كلها: الهو/النحن/ الأنا: أنتم/ الهو/ الأنا/ الهو/ النحن/ الأنا/ الهم/الهو/الأنا/الهو اليهودي/النحن.

ويستطيع المرء، إذا ما أمعن النظر في الضمائر وما كتب تحتها، أن يلحظ أن هذا التعبير في الضمائر ليس لعبة شكلية، إنه مرتبط بحالة الشاعر والموضوع الذي يتحدث عنه، إنه يعبر عن ذاته مستخدماً ضمير الهو حين يأتي على وحدته وحزنه وغربته، ولكنه حين يعود إلى واقعه ويتحدث عن هم عام، لا عن هم خاص، ينطق باسم المجموع، إنه ينتمي إلى القضية العامة التي تخص الشعب العربي، وحين يلحظ تكاسل الآخرين يجرد ذاته منهم ليشكل ذاتاً منفردة تخاطب الآخرين وتحثهم على الفعل. هنا يتحول أنا الشاعر إلى داعية ومحرض وكاشف لما هو عليه الواقع ولما عليه الآخرون. ترى الأنا ما لا يراه الآخرون، وتبصر ما لا يبصرون، وهكذا، في هذه اللحظة تنفصل عنهم، ولكنها لكونها تنتمي إليهم، تعود وتتحدث باسم الكل، عبر ضمير النحن، التي تقف في نهاية القصيدة أمام الآخر اليهودي ومن يقف وراءه:

قضيتنا سلام بالسلاح

فثمَ سِلْمٌ حفرة، وسلامنا جَبَلُ

وإن العنف باب الأبجدية

في زمان عهره دولُ.

ونستطيع أن نقف أمام أسطر دالة تبرز لنا كل ما سبق. يعبر الشاعر عن حزنه وغربته ووجده وألمه في غير موقع من القصيدة، من ذلك مثلاً:

وفيما كان في حُلم تقاطر حوله الحَجَلُ

وفاخر صحبُهُ في رحله الدنيا، وما وصلوا

ولما أيقظته الريح ضاقت في الشجى الحيّلُ

فما يبكي، ولكن لو بكى يُرْجى له أملُ
تفرّد صامتاً مُرّاً، ومنه يقطر العسلُ

وحين يرى ذاته جزءاً من جماعة، ولكنها جماعة غير فاعلة، ويدرك أنه يملك مفاتيح الأمور والطريق الصحيح، يجرد من ذاته واعظاً، وينفصل عن الآخرين، وإن كان متصلاً بهم:

فإن لم تقدحوا ناراً، فكيف يراكم الأملُ
فإن قدحت، فكونوا لبّها ستظل تشتعلُ

وحين يكون في الغربة بعيداً عن أهله، يتذكر هؤلاء:

تذكر أهله فطوى، فكابر دمعه الخَضل
وعاتب صامتاً مرّا، ومنه يقطر العسلُ

وعلى الرغم من جفاء الآخرين له وبعده عنهم إلا أنه يظلُ ينتمي إليهم:

فلا أحبابه يوماً بأحباب ولا سألوا
وما مسحوا له دمعاً كما الأحباب بل عملوا
ونقل قلبه لكنهم كانوا هم الأولُ
فلم يعدل بنخلة أهله الدنيا، فنخلة أهله الأزلُ
وماؤهم الذي يروي وماء آخر بَلَلُ

لكأنّ مظفراً هنا يكرر، بعبارات مختلفة، ما قاله أحد الشعراء القدامى عن بغداد وساكنيها، وإن كان مظفر يتحدث عن العرب لا عن أهل بغداد وحسب:

سافرتُ أبغي لبغداد وســاكنها مِثلاً فحاولت شــيئاً دون اليأسُ
هيهات بغداد الدنيا بأجمعهــا عندي، وســكان بغداد هم الناسُ

ويتحدث مظفر باسم النحن، ويشير إلى الآخرين الهم، وهنا يبدو جزءاً من كل كان اختلف معه، ولكنه ينتمي إليه:

قضيتنا، وإن نفخوا الكلى، وشرارهم جَبَلُ
وصاغوا من قراراتٍ، وإن نخلوا
لها دربٌ مضيء واحدٌ ربٌ
فلا لاتٌ ولا عُزى ولا هُبلُ
قضيتنا لنا أرضٌ قد اغتصبت وكنا عزلا
لا نعرف السوق البرجوازي في الدنيا
ولا ما تصنع الأموال والحيلُ
وطالبنا فكان قرار تقسيم
وطالبنا فصرنا لاجئين وخيمة جرباء تنتقلُ

**النواب العراقي الفلسطيني: العربي**

يقول مظفر:

وأمسكه هوى لبلاده ما بعده غزلُ
عراقي هواه، وميزة فينا الهوى خَبَلُ

وهو هنا، كما في قصائده، يعبر عن انتمائه للعراق، ولكن انتماءه لا يجعل منه عراقياً متعصباً للعراق، فالعراق جزء من الوطن العربي وهو على الرغم من تشرده إلا أنه وفيٌّ ولا يشعر بالخجل من بني قومه:

ورغم تشردي لا يعتريني بنخلة خجلُ

بلادي ما بها وسط، وأهلي ما بهم بُخْلُ

وليست النخلة مقتصرة على أرض العراق، وإن وجدت هناك بكثرة، إن النخلة غدت في الشعر العربي، قديمه وحديثه، رمزاً للأمة العربية وهو ما بدا في قصائد أخرى للشاعر، منها" وتريات ليلية"، يقول مظفر" النخلة أرض عربية" وإن كان تحدث عن نخيل العراق ولطالما هاجم دعاة القطرية" قالوا بالوحدة وأضافوا القطرية ذيلاً قبَليّا".

ولئن كان ذكر، في القصيدة، العراق مرة، فقد ذكر حيفا والقدس وفلسطين، وحين تحدث عن أهل هذه المدن والبلاد؛ فإنه تحدث وكأنه واحد منهم، ولم يكن حديثه عن فلسطين وأهلها، وهو منهم، مقتصراً على هذه القصيدة، ولربما يجدر بنا أن ندرس صورة فلسطين في أشعار مظفر، وفلسطين له، كالعراق له لا فرق ولنلحظ كيف أنه يكتب عن أهل فلسطين:

وطالبنا فصرنا لاجئين وخيمة جرباء تنتقلُ

كم اغتصبت عروس من مخيمنا

وكم جعنا عرينا، كم خجلنا

ثم طالبنا، فلم نسمع، فكشرّ نابه الخَجَلُ

إنه واحد من أهل فلسطين، وحين يطالب يطالب باعتباره واحداً من أصحابها، إنه ينتمي إلى اللاجئين ويرى نفسه واحداً من سكان المخيم، وفي موطن أخر يقول:

لقد أرضعت حبَّ القدس

وائتلقت منابرها بقلبي

قبل أن تبكي التي أرضعتني، وهي تحكي

تماماً كما لو أن عشق الأرض يورث على رأي محمود درويش" والأرض تورث كاللغة" وأنا، وإن كنت لا أتفق وهذا حرفياً، إلا أنني أستطيع أن أتفهم ما الذي يرمي إليه مظفر ودرويش.

**التعبير عن الانفصال والاتصال من خلال النص:**

يعبر مظفر عن اتصاله بأهله، بعد انفصاله عنهم مراراً أنه مثل الشنفري الذي أعلن عن انفصاله ثم سرعان ما عبر عن رغبته في الاتصال مراراً، ينفصل الشنفري عن قومه، ويقرر أن يعيش وحيداً، غير أنه لا يستطيع، وسرعان ما يبحث عن جماعة، وحين يدرك استحالة العيش مع الجماعة الجديدة، وهي الحيوانات الضارية، يبحث عن نصير جديد يجده في قلبه الشجاع وسيفه وقوسه، وحين يتأكد من أن هذه وحدها لا تكفي يبحث عن الصعاليك الآخرين، وقد عبر عن ذلك من خلال بحث الذئب عن ذئاب أخرى تؤازره وتقف إلى جانبه يوم أخفق في الحصول على الطعام.

يعبر مظفر أيضاً عن انفصاله وما ألمَّ به، ويبدي مثل الشنفري، رغبته في الاتصال.

يقول مظفر:

بذلت الروح حتى قيل يا مولاي يَبْتَذِلُ

وقد صار الفراق هوى جديداً وهو متصلُ

فما أدري سلوت أم ابتدأت

تشابه الزعل

وقد عبّر عن الفكرة نفسها في قوله:

ونقل قلبه لكنهم كانوا هو الأوّلُ
وماؤهم الذي يروي وماء آخر بللُ
فبعضي عاشق يصحو، وبعضي عاشق كهلُ
ورغم تشردي لا يعتريني بنخلة خجلُ
بلادي ما بها وسطٌ وأهلي ما بهم بخلُ
ورغم تشردي لا يعتريني بدجلة خجلُ

ولعل أكبر دليل على اتصاله بقومه الذين انفصل عنهم يكمن في طريقة كتابته النص. لقد اختار مظفر، وما زال، الشكل الشعري الأقرب إلى القصيدة العربية لغة وأسلوباً. إن لغته لغة تراثية، ولا يخلو أسلوبه من الطباق والجناس ورد العجز على الصدر، وحسن تقسيم الجمل والتفعيلة والقافية والصورة والمجاز.